

مقدمات لتحصيل الخشوع

طلال الحسن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيّدنا وشفيعنا النبيّ الأمين أبي القاسم محمّد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

لاشكَّ أنَّ الصلوة الحقيقية مع الله تعالى تنشأ بعد الإيمان به عبر فريضة الصلاة، فهي المرآة الحاكية عن حقيقة الإيمان، ففي الخبر عن عبّيد بن زرارة أنه سأل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن الكبائر، فقال: (هُنَّ فِي كِتَابِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَبْعٌ: الْكُفْرُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعَقْوُقُ الْوَالِدِينَ، وَأَكْلُ الرَّبَا بَعْدَ الْبَيْتَةِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْمًا، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ، وَالتَّعَرُّبُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ، قَالَ: فَقُلْتُ: فَهَذَا أَكْبَرُ الْمَعَاصِي؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فَأَكُلُ دَرَاهِمٍ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ ظُلْمًا أَكْبَرَ أَمْ تَرُكُ الصَّلَاةَ؟ قَالَ: تَرُكُ الصَّلَاةَ، قُلْتُ: فَمَا عَدَدَتَ تَرُكَ الصَّلَاةِ فِي الْكِبَائِرِ؟ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَوَّلُ مَا قُلْتُ لَكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: الْكُفْرَ، قَالَ: فَإِنَّ تَارِكَ الصَّلَاةِ كَافِرٌ. يَعْنِي: مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ^(١).

وهي عمود الدين، بل النافذة التي يُنظر من خلالها إلى سائر الأعمال الأخرى، فقد روي الشيخ الطوسي بسندٍ عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (إِنَّ عَمُودَ الدِّينِ الصَّلَاةُ، وَهِيَ أَوَّلُ مَا يُنظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ، فَإِنْ صَحَّحْتَ نُظْرَ فِي عَمَلِهِ، وَإِنْ لَمْ تَصْحَحْ لَمْ يُنظَرْ فِي بَقِيَّةِ عَمَلِهِ)^(٢).

ولهذه الصلاة شكل وصورة وروح تمثل حقيقتها، فالهيئة والفصول الظاهرة منها ترسم شكلها وصورتها، كالقيام والركوع والسجود، والقراءة والذكر، والتشهد والتسليم، وأما

١ - الأصول من الكافي، للشيخ الكليني: ج ٢ ص ٢٧٨ ح ٨.

٢ - تهذيب الأحكام، للشيخ الطوسي: ج ٢ ص ٢٣٧ ح ٥. يظهر أنّ جملة: (يعني: من غير عِلَّةٍ)، من المصنّف الشيخ الكليني. انظر: شرح أصول الكافي، للملّا محمّد صالح المازندراني: ج ٩ ص ٢٦٤.

روحها وحقيقتها فما تُحدثه الصلاة من التواصل الحقيقي مع الله تعالى، وعلامة حصول ذلك التواصل هو الخشوع، ولذلك فإنَّ تضاؤل أو اختفاء حالة الخشوع تكشف عن فقدان حلقة التواصل، وحيث ما فُقدت تلك الحلقة أو الرابطة فإنَّ البديل الحاضر هو الدنيا بمختلف تفاصيلها، ولذلك جاءت التنبيهات الروائية عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام بضرورة تقصِّي أحوالنا في الصلاة، فالظواهر تنمُّ عن البواطن، والشكل يحكي المضمون.

أما روح الصلاة وحقيقتها، الخشوع، فقد نبَّهوا له عليهم السلام في عشرات الأخبار، منها ما رواه الكليني بسندٍ عن الحلبي، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنَّه قال: (إذا كنتَ دخلتَ في صلاتك فعليك بالتخشُّع والإقبال على صلاتك؛ فإنَّ الله عز وجل يقول: "الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ")^(١)، ثمَّ يترقَّى عليه السلام ببيان أرقى مراتب الخشوع، كما روى الكليني بسندٍ عنه عليه السلام أنَّه قال: (كان أبي عليه السلام يقول: "كان علي بن الحسين صلوات الله عليها إذا قام في الصلاة كأنه ساق شجرة، لا يتحرَّك منه شيء، إلا ما حرَّكه الريح منه")^(٢)، يقصد ثيابه.

والسؤال المهم الذي يفرض نفسه: كيف لنا تحصيل الخشوع، والترقِّي في مراتبه؟

الجواب إجمالاً

من خلال فهم العلاقة الوطيدة بين شكل الصلاة وصورتها وبين روحها وحقيقتها، وكما قلنا آنفاً (الظواهر تنمُّ عن البواطن، والشكل يحكي المضمون)، وذلك لشدة الارتباط بين الظاهر والباطن، أو بين الشكل والمضمون، أو بين الصورة الحقيقية، أو بين الحاكي والمحكي، فالشكل طريق عظيم للتماس مع الحقيقة، وبتلك الحقيقة يتحقَّق التواصل المطلوب بيننا وبين الله تعالى، ولأهمِّية هذه العلاقة نبَّه لها أهل بيت العصمة صلوات الله عليهم أجمعين، فقد روى الكليني في الكافي الشريف بسندٍ عن زرارة عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنَّه قال:

١ - الفروع من الكافي، للشيخ الكليني: ج ٣ ص ٣٠٠ ح ٣، باب: (الخشوع في الصلاة وكرهية العبث).

٢ - الفروع من الكافي، للشيخ الكليني: ج ٣ ص ٣٠٠ ح ٤، باب: (الخشوع في الصلاة وكرهية العبث).

(إذا قُمت في الصلاة فعليك بالإقبال على صلاتك، فإنما يُحسب لك منها ما أقبلت عليه، ولا تعبت فيها بيدك، ولا برأسك، ولا بلحيتك، ولا تُحدّث نفسك، ولا تتأب، ولا تتمطّ، ولا تُكفّر، فإنما يفعل ذلك المجوس، ولا تَلثّم، ولا تحتفز، [ولا] تُفرّج كما يفرّج البعير، ولا تقع على قدميك، ولا تفرش ذراعيك، ولا تُفرقع أصابعك، فإن ذلك كله نُقصانٌ من الصلاة، ولا تقم إلى الصلاة مُتكاسلاً ولا متناعساً ولا متثاقلاً، فإنها من خلال النفاق، فإن الله سبحانه نهي المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة وهم سكارى، يعنى: سُكر النوم، وقال للمنافقين: "وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا"^(١).

وهنا نلاحظ التركيز المكثف على شكل الصلاة وصورتها، مع إلفات النظر لروح الصلاة، الخشوع، بقوله: (ولا تُحدّث نفسك)، وبذلك نفهم أنّ لشكل الصلاة وصورتها الخارجية علاقة وثيقة بحقيقة الصلاة وروحها، فالإمام الباقر عليه السلام شرع بالتنبيه لروح الصلاة بقوله: (إذا قُمت في الصلاة فعليك بالإقبال على صلاتك، فإنما يُحسب لك منها ما أقبلت عليه)، ثم ذكر ورکز على تفاصيل الشكل والصورة؛ للتنبيه إلى حقيقة الارتباط بينها وبين روح الصلاة، وإذا ما قيل إنّ للحقيقة ظاهر، وهي الشريعة، وللشريعة باطن، وهي الحقيقة، فالكلام هو الكلام.

أمّا الجواب بشيء من التفصيل

فإن نافذته بالالتفات إلى السبل التالية، فهي وسائل تحقيق الخشوع، بمعنى أنها تجعلنا على تماس كبير مع حقيقة الصلاة وروحها، والتي منها:

١ - الفروع من الكافي، للشيخ الكليني: ج ٣ ص ٢٩٩ ح ١، باب: (الخشوع في الصلاة وكرهية العبث).
 الثأوب: فتح الفم. والتمطّي: مدّ اليدين. والتكفير: وضع إحدى اليدين على الأخرى مُحاذياً لصدره.
 والمتلثم: المتنقب الذي وضع اللثام على فيه. لا تحتفز: أي لا تتضام في سجودك، بل تتخوى كما يتخوى البعير الضامر، عكس المرأة فإنها تحتفز في سجودها ولا تتخوى، وقولهم: هو محتفز، أي: مستعجل متوفز غير متمكّن في جلوسه كأنه يريد القيام. انظر: مجمع البحرين، للشيخ الطريحي: ج ٤ ص ١٦.

• السبيل الأول: إتقان شكل الصلاة

مرّ بنا خبر زرارة عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنّه قال: (إذا قُمت في الصلاة فعليك بالإقبال على صلاتك...)، حيث تنطلق من بيان روح الصلاة، وهو الخشوع وحضور القلب، ثمّ تبين تفاصيل مهمّة حول شكل الصلاة لما لها من علاقة وثيقة بروح الصلاة، وهي رواية تحتاج إلى تمعن كبير وتأمل عميق للتخلّي بما جاءت به، وهنالك رواية أكثر تفصيلاً.

عن حمّاد بن عيسى أنّ الإمام إبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال له يوماً: (يا حمّاد تحسن أن تُصليّ؟ قال: فقلت: يا سيدي أنا أحفظ كتاب حريز في الصلاة، فقال: لا عليك يا حمّاد^(١)، فم فصلّ، قال: فقمّت بين يديه متوجّهاً إلى القبلة فاستفتحت الصلاة فركعتُ وسجدتُ، فقال: يا حمّاد لا تحسن أن تُصليّ، ما أقبح بالرجل منكم يأتي عليه ستون سنة أو سبعون سنة فلا يُقيم صلاةً واحدةً بحدودها تامّة! قال حمّاد: فأصابني في نفسي الذلّ. فقلتُ: جُعلتُ فذاك فعلمني الصلاة فقام أبو عبد الله عليه السلام مستقبلاً القبلة منتصباً فأرسل يديه جميعاً على فُخذه، قد ضمّ أصابعه وقرب بين قدميه حتى كان بينهما قدر ثلاث أصابع مُنفرجاتٍ واستقبل بأصابع رجله جميعاً القبلة، لم يحرفهما عن القبلة، وقال بخشوع: الله أكبر، ثمّ قرأ الحمد بترتيل^(٢) وقل هو الله أحد، ثمّ صبر هنية^(٣) بقدر ما يتنفس وهو قائمٌ ثمّ رفع يديه حيال وجهه وقال: الله أكبر. وهو قائمٌ ثمّ ركع وملاً كفيه من ركبتيه مُنفرجاتٍ

١- أي لا بأس عليك بالعمل بكتاب حريز.

٢- قال: الشيخ البهائي (ره): (الترتيل التائيّ وتبين الحروف بحيث يتمكّن السامع من عدّها. مأخوذٌ من قولهم ثغرتل ومُرتل، إذا كان مفلجاً، وبه فسر قوله تعالى: "وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً"، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه حفظ الوقوف وبيان الحروف، أي مراعاة الوقف والحسن والإتيان بالحروف على الصفات المعترية من الهمس والجهر والاستعلاء والإطباق والغنة وأمثالها، والترتيل بكلّ من هذين التفسيرين مُستحبٌ، ومن حمل الأمر في الآية على الوجوب فسر الترتيل بإخراج الحروف من مخارجها على وجه يتمييز ولا يندمج بعضها في بعض). مرآة العقول، للعلامة محمد باقر المجلسي: ج ١٥ ص ١٠٢.

٣- هنية - بضم الهاء وتشديد الياء - بمعنى: الوقت اليسير.

وردَّ رُكْبَتَيْهِ إِلَى خَلْفِهِ حَتَّى اسْتَوَى ظَهْرَهُ حَتَّى لَوْ صُبَّ عَلَيْهِ قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ أَوْ دَهْنٍ لَمْ تَزَلْ لاسْتِوَاءِ ظَهْرِهِ، وَمَدَّ عُنُقَهُ، وَغَمَّضَ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ سَبَّحَ ثَلَاثًا بِتَرْتِيلٍ فَقَالَ: سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ. ثُمَّ اسْتَوَى قَائِمًا فَلَمَّا اسْتَمَكَّنَ مِنَ الْقِيَامِ قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ. ثُمَّ كَبَّرَ وَهُوَ قَائِمٌ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ حِيَالَ وَجْهِهِ ثُمَّ سَجَدَ وَبَسَطَ كَفَيْهِ مَضْمُومَتِي الْأَصَابِعِ بَيْنَ يَدَيْ رُكْبَتَيْهِ حِيَالَ وَجْهِهِ فَقَالَ: سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ، ثَلَاثَ مَرَاتٍ، وَلَمْ يَضَعْ شَيْئًا مِنْ جَسَدِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ، وَسَجَدَ عَلَى ثَنَانِيَّةٍ، أَعْظَمَ الْكَفَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ وَأَنَامَلَ إِبْهَامِي الرَّجْلَيْنِ وَالْجِبْهَةَ وَالْأَنْفَ، وَقَالَ: سَبْعَةٌ مِنْهَا فَرَضَ، يُسَجَدُ عَلَيْهَا وَهِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: "وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا"، وَهِيَ الْجِبْهَةُ وَالْكَفَّانُ وَالرُّكْبَتَانِ وَالْإِبْهَامَانِ، وَوَضَعَ الْأَنْفَ عَلَى الْأَرْضِ سُنَّةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ السُّجُودِ فَلَمَّا اسْتَوَى جَالِسًا قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ. ثُمَّ قَعَدَ عَلَى فُخْذِهِ الْأَيْسَرِ وَقَدَّ وَضَعُ ظَاهِرِ قَدَمِهِ الْأَيْمَنِ عَلَى بَطْنِ قَدَمِهِ الْأَيْسَرِ وَقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ رَبِّي وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. ثُمَّ كَبَّرَ وَهُوَ جَالِسٌ وَسَجَدَ السُّجُودَ الثَّانِيَةَ وَقَالَ: كَمَا قَالَ فِي الْأُولَى وَلَمْ يَضَعْ شَيْئًا مِنْ بَدَنِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ فِي رُكُوعٍ وَلَا سَجُودٍ وَكَانَ مَجْنَحًا^(١)، وَلَمْ يَضَعْ ذِرَاعِيهِ عَلَى الْأَرْضِ فَصَلَّى رُكْعَتَيْنِ عَلَى هَذَا^(٢)، وَيَدَاهُ مَضْمُومَتَا الْأَصَابِعِ وَهُوَ جَالِسٌ فِي التَّشَهُدِ فَلَمَّا فَرَّغَ مِنَ التَّشَهُدِ

١- أي: رافعًا مرفقيه عن الأرض حال السجود جاعلاً يديه كالجنحين فقوله: "لم يضع" عطفٌ تفسيريٌّ.
 ٢- وقوله: (وصلّى ركعتين على هذا). قال المجلسي: (قال الشيخ الطوسي رحمه الله: "هذا يعطى أنه عليه السلام قرأ سورة التوحيد في الركعة الثانية أيضًا، وهو ينافي المشهور بين أصحابنا من استحباب مغايرة السورة في الركعتين وكراهة تكرار الواحدة فيهما إذا أحسن غيرهما، كما رواه علي بن جعفر عن أخيه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ما يبال إليه بعضهم من استثناء سورة الإخلاص عن هذا الحكم وهو جيد، ويعضده ما رواه زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى ركعتين وقرأ في كل منهما قل هو الله أحد. وكون ذلك لبيان الجواز بعيد، ولعل استثناء سورة الإخلاص بين السور واختصاصها بهذا الحكم لما فيه مزيد الشرف والفضل). مرآة العقول، للعلامة محمد باقر المجلسي: ج ١٥ ص ١٠٥.

أقول: معنى (وصلّى ركعتين على هذا): من الوقوف والقراءة والتكبير والركوع والسجود، وأمّا التنويع

سَلَّمَ. فقال: يا حَمَّاد هكذا صل) (١).

إنَّ هذه الرواية تضبط لنا تفاصيل شكل الصلاة، ولذلك علينا أن نتقن هذا الشكل، وأن نراعي أدق التفاصيل المروية، لأمرين:

• الأوَّل: لأننا مأمورون بأخذ ديننا منهم وإتباعهم في كلِّ ما وصلنا وصحَّ عنهم عليهم السلام.

• الثاني: لأننا نريد تحصيل روح الصلاة.

ومن شروط ذلك حفظ شكل الصلاة وصورتها بطريقتها الشرعية، ومن ذلك إتقان الوقوف والركوع والسجود، والإتيان بأدق التفاصيل على أكمل وجه، وأن نتجنَّب الوقوع في شرك الصلاة التي لا تعدو عن كونها نقرًا كنقر الغراب.

عن زارة عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنَّه قال: (بيننا رسول الله صلى الله عليه وآله جالسٌ في المسجد إذ دخل رجلٌ فقام يُصَلِّي فلم يُتمِّ ركوعه ولا سجوده، فقال صلى الله عليه وآله: "نقرٌ كنقر الغراب، لئن مات هذا وهكذا صلاته ليموتنَّ على غير ديني) (٢).

فهذا الذي لم يُتقن الركوع والسجود يكشف عن عدم خشوعه وعدم حضور القلب في صلاته، فهي قشرٌ غير مُتقن، ولو حضر قلبه لتوجَّه لسائر أفعال الصلاة ولما يقول، فلا يبقَ عنده التفات لغير الصلاة، وفي ذلك روى النوري بسندٍ عن أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: (إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أبصر رجلاً يعبثُ بلحيته في الصلاة، فقال: "أما أنَّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه) (٣).

في قراءة السور القصيرة فمشروع وفيه روايات. فالقول ليس ناظرًا إلى تكرار سورة التوحيد، وإنَّما إلى تكرار الهيئة التي عليها الركعة الأولى، وبالجمع مع روايات أخرى يتضح صحَّة المغايرة بين السور القصصار، كما يصحُّ أيضًا الاقتصار على التوحيد في كلتا الركعتين.

١- الفروع من الكافي، للشيخ الكليني: ج ٣ ص ٣١١-٣١٢ ح ٨.

٢- الفروع من الكافي، للشيخ الكليني: ج ٣ ص ٢٦٨ ح ٦.

٣- مستدرک الوسائل، للميرزا حسين النوري: ج ٥ ص ٤١٧ ح ٣.

يقول المازندراني: (المراد بخشوع القلب اشتغاله بذكر الله تعالى وتوجهه إليه، وإعراضه عمّا سواه، وإذا حصل له هذه الفضيلة حمل الجوارح على ما هو المطلوب مع انكسارٍ وتذللٍ وخوفٍ على مخالفتها لغفلةٍ أو سهوٍ أو لغرضٍ من الأغراض النفسانية، واشتغال الجوارح بذلك عبارةً عن خشوعها)^(١).

ومن ملحقات شكل الصلاة هو التأدّب في حضرة المولى سبحانه، فكما تتأدّب في حضرة الملك أو الحاكم أو الرئيس أو الأستاذ، فلا تتحرّك بحرّكات منفرّة، فكذلك في الصلاة، فلا تعبث بوجهك أو بيديك، فذلك كاشف واضح عن الخلو تمامًا من أدنى مراتب الخشوع، وفي الحديث الشريف أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: (أما أنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه).

• السبيل الثاني: الاهتمام بمحيط الصلاة

نعني بمحيط الصلاة مكانها، ولذلك نجد رواياتٍ كثيرةً قد استدللّ بها الفقهاء على حرمة وبطلان الصلاة في المكان المغصوب، عند العلم والتذكّر قبل أداء الصلاة، بل لو تذكّر أثناء الصلاة قطعّ صلاته، كما لا تصحّ الصلاة في الأماكن الخاصة المملوكة للغير من دون أخذ الإذن منه، كما في البساتين المسوّرة، ومع العلم بعدم رضا المالك لا تصحّ، وأمّا الأماكن العامة فلا بأس بها، كما تبطل الصلاة في المكان النجس أو المتنجّس، ومن ذلك ما يتعلّق بسجادة الصلاة، وأن يكون السجود على ما يصحّ السجود عليه، من تراب أو مطلق الأرض وما أنبتته شرط أن لا يكون مأكولاً.

وأشرف أماكن الصلاة المساجد، وأفضلها المراقد الطاهرة، فهي أفضل المساجد. وهنا ننصح أن يخصّص المصلّي في بيته مكاناً للصلاة، ولو بقدر مترٍ، فيكون له مسجدًا، فلا يأكل فيه، ولا ينام، ولا يُقارب فيه، لا بمعنى التحريم، وإنّما بمعنى الإجلال والتقدير.

• السبيل الثالث: الاهتمام بزينة الصلاة

١- شرح أصول الكافي، للملا محمد صالح المازندراني: ج ٨ ص ٢٣٧.

ونعني بها الملابس النظيفة الطاهرة، وقد قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} (الأعراف: ٣١)، ومن الزينة الطيب (العطر)، والتختم باليمين، والمسبحة، والأفضل أن يكون لك خاتمٌ مخصوصٌ للصلاة، ومسبحة خاصة بالصلاة، بل ثياب خاصة بالصلاة، والأفضل في الثياب أن تكون بيضاء، ويستحب للرجل أن لا يكون حاسر الرأس، فيلبس القلنسوة (عرقشين)، فحسر الرأس مكروه عموماً، لاسيما في الصلاة.

• السبيل الرابع: الاهتمام بوقت الصلاة

ونعني بذلك أداء الصلاة في أوّل وقتها، بل المستحب الانشغال بمقدّمات الصلاة قبل حينها ولو بدقائق، ومن ذلك الاشتغال بقراءة قرآنٍ أو بتسبيح، أو بذكر خاص، ولا تقدّم شيئاً على الصلاة مهما كان مهمّاً وعظيماً، وكان أحد العطاء يقول: (قل لشغلك عندي صلاة، ولا تقل لصلاتك عندي شغل)، وفي الحديث الشريف عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (فضل الوقت الأوّل على الأخير كفضل الآخرة على الدنيا)^(١)، كما قيل: (فضل الصلاة في أوّل وقتها جزور، وفي آخرها عصفور).

ومن تأخّر عن صلاته عامداً فهو مشمول لقوله تعالى: {الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} (الماعون: ٥)، والصلاة في أوّل وقتها علاج لدفع الهموم والغموم، كما في الأخبار.

• السبيل الخامس: الاهتمام بالوضوء

سواء في كيفية الوضوء أو في ضرورة أن يكون ماء الوضوء طاهراً غير مغصوب، بل لا بد أن يكون مأذوناً به، فالماء الموضوع أو الموقوف للشرب لا يصحّ الوضوء به، والأفضل أن يكون لكل صلاة وضوء خاص بها، أو على أقل التقادير للظهر والعصر- وضوء، وللمغرب والعشاء وضوء، وللصبح وضوء، فإنّ أداء عدّة صلوات مفروضة بوضوء واحد، كمن صلى الصبح والظهرين بوضوء واحد، أو صلى الظهرين والعشائين بوضوء واحد، فهو صحيحٌ ومجزٍ، ولكنه ليس الأفضل، وكان بعض العارفين يرون هذا نوعاً من

١- ثواب الأعمال، للشيخ الصدوق: ج ١ ص ٥٨ ح ٢.

الاستخفاف، وكأنك تقدّم للضيف في العشاء طعام الغداء نفسه.
والأفضل الوضوء بالماء العادي صيفاً وشتاءً، لا البارد في الصيف ولا الدافئ في الشتاء،
إلا عند الحاجة الماسّة لذلك، فإنه كما ورد في الحديث النبوي المشهور: (أفضل الأعمال
أحمرها)، ومن إسباغ الوضوء الإتيان ببعض الأذكار المخصوصة، والإتيان ببعض مقدّمات
الوضوء، كالمضمضة والاستنشاق، والتسمية عند وضع الماء على اليد، وغير ذلك.

• السبيل السادس: تلاوة شيء من القرآن قبل الصلاة

إنّ تلاوة القرآن قبل الشروع بالصلاة تمهيدٌ معنويّ، وتهيئة جميلة للخشوع، فإنّ من أهم
أسباب صعوبة تحصيل الخشوع في الصلاة هو عدم التلبّس بالخشوع قبلها، ولذلك فإنّ
الصلاة سهلةٌ يسيرةٌ على الخاشعين قبل الصلاة: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا
عَلَى الْخَاشِعِينَ} (البقرة: ٤٥)، والخشوع في أبسط معانيه هو حصول التوجّه وحضور القلب
في ما نطقه ونقوم بها، فإن حصل التوجّه نكون قد أمسكنا بزمام الخشوع، وعندئذٍ نعدّ من:
{الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} (المؤمنون: ٢).

وعلامة الخشوع في الصلاة حصول الرغبة الشديدة في إدامة الصلاة وعدم الانفلات
عنها، فإن حصل العكس، لأيّ سببٍ كان، نفهم أنّ صلاتنا تفتقر للخشوع.

• السبيل السابع: الإكثار من التوبة والاستغفار والتباكي

ولا نعني بذلك التعقيبات التي تلي الصلاة، وإنما الأذكار التي تسبقها، فكما نسبق الصلاة
بتلاوة ما تيسّر من القرآن فكذلك نسبقها ببعض بالتوبة والاستغفار، ففي ذلك رسالة
واضحة من أنّك لست من المستكبرين، فالتوبة والاستغفار تعبيران عن الاعتراف بالتقصير،
وهذا الأمر مهمٌّ جدًّا في تحصيل الخشوع، وممّا يزيد في استجلاب الخشوع البكاء أو التباكي
ولو في سرّك، فتبكي أو تتباكى على ما وقع منك من الذنوب والأخطاء، أو تبكي على ما فتك
من الكمالات، فتجعل نفسك محلّ تهمةٍ ومحاسبةٍ لينتفي عنك العُجب والغرور والاستكبار،
ويلجئ في قلبك نور التوبة والاستغفار.

ولك أن تستعين ببعض الأدعية المعينة على تحصيل البكاء، من قبيل هذا المقطع من دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام علي زين العابدين عليه السلام: (وَأَعِنِّي بِالْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِي، فَقَدْ أَفْنَيْتُ بِالتَّسْوِيفِ وَالْأَمَالِ عُمْرِي، وَقَدْ نَزَلْتُ مَنْزِلَةَ الْإِسْيِينِ مِنْ خَيْرِي، فَمَنْ يَكُونُ أَسْوَأَ حَالًا مِنِّي، إِنْ أَنَا نُقِلْتُ عَلَى مِثْلِ حَالِي إِلَى قَبْرِي، لَمْ أُمَهِّدْهُ لِرَقْدَتِي، وَلَمْ أَفْرُشْهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ لِضَجْعَتِي، وَمَالِي لَا أَبْكِي وَلَا أَدْرِي إِلَى مَا يَكُونُ مَصِيرِي، وَأَرَى نَفْسِي تُخَادِعُنِي، وَأَيَّامِي تُخَانِلُنِي، وَقَدْ خَفَقْتُ عِنْدَ رَأْسِي أَجْنِحَةَ الْمَوْتِ، فَمَالِي لَا أَبْكِي! أَبْكِي لِخُرُوجِ نَفْسِي، أَبْكِي لِظُلْمَةِ قَبْرِي، أَبْكِي لِضَيْقِ لِحْدِي، أَبْكِي لِسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ إِيَّايَ، أَبْكِي لِخُرُوجِي مِنْ قَبْرِي عُرْيَانًا ذَلِيلًا حَامِلًا ثِقْلِي عَلَى ظَهْرِي، أَنْظُرُ مَرَّةً عَنِ يَمِينِي وَأُخْرَى عَنِ شِمَالِي).

• السبيل الثامن: التقليل من الملذات

من مجموعة كبيرة من مضامين آيات قرآنية وروايات للنبي الخاتم وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، ومن مضامين كلمات العلماء، لاسيما العرفاء منهم، وجدنا أن مركب أو سرّ السير والسلوك إلى الله سبحانه يكمن في قلاتٍ ثلاثٍ وفي كثراتٍ ثلاثٍ:

أما القلات فهي:

١. قلة الطعام

٢. قلة الكلام

٣. قلة المنام (قلة النوم وقلة المقاربة)

وأما الكثرات الثلاث فهي:

١. كثرة العبادة

٢. كثرة التفكير

٣. كثرة العطاء والإطعام

وبقدر القلة تكون الكثرة، ومن عكس فأكثر في القلة وأقل في الكثرة فهو محروم مذموم مغموّم، ولتلك القلات أثر عظيم على النفس يناله الإنسان وإن لم يكن مُراعياً للكثرات،

ولكنها للعابد ستكون عوناً كبيراً على تحقيق الكثرات، كما أنّ الكثراتِ نفسها يمكن أن تكون سبباً في تحقيق القلّات أو في تدعيمها، وما أسعد من جمع بين تلك القلّات والكثرات! وهي على مراتب، وكلّ إنسان، وقد قال تعالى: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا} (الإسراء: ٨٤)، أي: قل أيها الرسول للناس: كلّ واحدٍ منكم يعمل على ما يليق به من الأحوال فرّبكم أعلم بمن هو أهدى طريقاً إلى الحقّ.

• السبيل التاسع: إفراغ الذمّة

عندما تخلو النفس من هموم مُطالبَة الآخرين يمكنها التوجّه للمعاني والطريق، فإنّ اشتغال الذمّة يُثقل من كاهل النفس، لاسيّما ما يتعلّق بحقوق الآخرين، من ديون مادية أو ديون معنوية، والديون المعنوية ما وقع منا من الغيب والبهتان وسوء الظنّ، وغير ذلك ممّا يُسيء الآخر لو علم به، فالصلاة تحتاج نفوسٍ خفيفةً في أثقالها، وقد فاز المُخفُّون، وكلّ رصيد مادّي جديدٍ تعلّق قبلك به مسارٍ في سجّادة صلاتك، والصلاة تحتاج سجّادةً بأجنحةٍ مطلقة، وليست مقيدةً بمسامير شتى.

• السبيل العاشر: الإحسان للنفس وللناس

لقد أمر الله تعالى بالإحسان في أكثر من آية، منها قوله تعالى: {وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (المائدة: ٩٣)، للإحسان معنيان:

- الأول: الإحسان للنفس، وهو ما نفهمه من الحديث الشريف، عندما سُئل النبيّ صلى الله عليه وآله عن الإحسان؟ فقال: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)^(١)، وهذا يأتي بحرق كل أشواك الشكّ، وهو معنى مقاربٌ أو مجانسٌ للتقوى الحقيقية التي تنتج أرقى مصاديق العمل الصالح، وهو الإحسان، وأمّا التقوى في أروع معانيها: هي مراقبة الله في الظاهر والباطن، والسرّ والعلن.
- الثاني: الإحسان للناس، وهو أن تعطي قبل السؤال، فيكون الفقير مقصدك.

١ - بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ٢١٩.

فمن أحسن في الحالين سيُبحر آمنًا مطمئنًا في بحرٍ من الخشوع.

• السبيل الحادي عشر: التوسُّل بالله تعالى

وهو الطريق الذي نرمم به انكساراتنا، فالطرق طويل جدًّا، والزاد قليل، وإنَّما يكون الزاد والزوادة في قطع الطريق أو في طيِّه بأقصر وقت وجهدٍ بالتوسُّل بالله تعالى، ومن أكثر الطرق كادت أن تفتح له الأبواب، بل هي مفتوحةٌ مشرعةٌ وإنَّما تحتاج إلى بصيرة.

• السبيل الثاني عشر: صُحبة المسجد

إنَّ للمسجد آثارًا عظيمةً في النفس، ففيه أنفاس التسبيح، وروائح الأدعية النفيسة، فإذا ما كان المؤمن كحمامة المسجد أو قريب من ذلك نهل من المسجد المسجدية، والمسجدية تمنع أروع وأعمق مستويات الخشوع.

وإن لم تجد أثرًا في مسجدٍ فانتقل لمسجدٍ آخر، وأين ما وجدت الفيض فأمسك.

الخلاصة

إنَّ كلَّ ما تقدَّم من السُّبل، مجموعةٌ أو متفرقةٌ، فإنَّها تصب في تحقيق الهدف، وهو التلبُّس بالخشوع، وعندها يمكننا أن نقول بثقة: (قد قامت الصلاة).